الدكتور صروف عالماً

١ — رياضيا وفلكيا

للاستاذ منصور جرداق استاذ الرياضيات العالية بجامعة بيروت الاميركية

اتصف الدكتور صروف منذ صغره بسمو المواهب العقلية فقد كانت لديه دروس الرياضيات الابتدائية والطبيعيات كالحساب والجبر والهندسة والمثلثات والكيمياء والفلسفة الطبيعية وعلم الفلك بمثابة قراءة القصص التاريخية والفكاهية ومسائلها وقضاياها بمنزلة الاوليات فلم يكن يجهد نفسه بدرسها وهو طالب (تلميذ) إلاّ قليلاً لانها كانت سهلة عليه وواضحة وجليّة في ذهنه بينما كان غيره من ابناء صفه يتعب كثيراً في درسها ويصرف معظم وقته في تحضيرها والاستعداد لها. ووهبهُ الخالق ذاكرة قوية ساعدتهُ على حفظ ما يتعلم الى أجل طويل ومكّنتهُ مما لديه من سائر القوى العقلية من طرق جميع موضوعات الدروس التي درسها ودرّسها وبحث فيها وسّهلت لهُ الفوز والنبوغ بين أقرانه وفي جيله. واذا أضفنا الى ذلك قوة ارادته العظيمة وشغفهُ وتعطشهُ الى حلّ المسائل والقضايا الرياضية والعلمية وولوعهُ بمعالجتها ومعاركتها وحنينهُ وتشوّقهُ الى معرفة المجهول وادراك كنه الحقيقة وما امتاز به من الصفات الادبية والعقلية والخلقية والتهذيبية كصفاء الذهن وحدّته وجلائه ومضاء العزيمة وقوة الحجة والمنطق وفصاحة العبارة وبراعة الاسلوب وحسن الذوق وسلامته وشرف العواطف وسموّ المبادئ والدقة في الاعمال والضبط التام — اذا اضفنا كل ذلك امكننا حينئذٍ ان ندرك سبب عظمة الدكتور صروف وسرّ تفوقه ونبوغه في العلوم وسموّ مكانته في المجتمع الانساني

ولكي يدرك القارئ شيئاً من الصورة الجميلة التي اقصد ان اصورها لهُ اذكر حادثة رواها لي الدكتور صروف نفسه في خريف سنة ١٩٢٥ وهي انهُ لما كان استاذاً في الكلية السورية الانجيلية (جامعة بيروت الاميركية الآن) استقال استاذ الكيمياء فجأة وعهد الى الدكتور صروف في تدريس علم كيمياء السموم فوق اشغاله الاعتيادية فقام به خير قيام. واتفق في تلك الاثناء انهُ اصيب بضعف في بصره لكثرة الدرس والمطالعة

وحياه الثاني ساهراً منقباً وباحثاً. فحظر عليه الاطباء الدرس واجبروه على الانقطاع عنه وكي لا يضيع على تلامذته شيئاً طلب الى زوجته الفاضلة ان تقرأ له يوماً فيوماً الدرس وما يتعلق به في جميع الكتب التي كانت لديه وهو يصغي اليها . ويحفظ لفهم منه في ذهنه . وكان يدخل الصفوف في اليوم التالي ويلقي الخطب ويستمع للطلبة كجاري عادته دون اقل تغيير كما لو كانت عيناه سليمتين. وبقي على تلك الحال مدة طويلة حتى تحسنت صحته وشفي تماماً من المرض الذي ألمّ به. فهل يوجد ما هو أنبل قصداً وأشرف غاية واعلى همة وأعظم ذكاء

ذكرت ان الدكتور صروف كان ممتازاً بالعلوم الرياضية والطبيعية ولذلك ندبته عمدة الكلية لتدريسها مع حداثة سنه في ذلك الوقت وجعلته في رتبة سائر المدرسين العظام مثل قان ديك الكبير وورتبات ويوست ولويس الذين اشتهروا في ذلك العصر بسمو المواهب العقلية والادبية والتهذيبية والنبوغ في العلوم والمعارف. وكل من يقرأ باب الرياضيات في المقتطف ويطالع المقالات الفلكية والطبيعية والعلمية التي انشأها الدكتور صروف او ترجمها ويقف على التعاليق والملاحظات التي اضافها اليها وينعم النظر فيها يعتقد بصحة قولي ويسلم برأيي . اذ يظهر له فيها سمو المواهب والتعمق والرسوخ في تلك العلوم والاحاطة بها رغماً عن عدم درس فروعها العالية لانها لم تكن قد ادخلت الى بلادنا في تلك الايام . فقد عالج وجرّب حلّ المعضلات الرياضية بموجب هندسة اقليدس كقسمة الزاوية الى ثلاثة اقسام متساوية وتربيع الدائرة وتضعيف المكعّب وتربيع الدائرة وصرف عليها وقتاً طويلاً وسار فيها شوطاً بعيداً ولكنه مثل كل حكيم حاذق ومنصف كان يكتشف خطأه بنفسه ويقتنع بصحة نتائجه ويستفيد من ابحاثه فائدة عظيمة تعود عليه بأحسن النتائج كما ثبت من اختبار كبار الرياضيين والعلماء الذين يقرّون ويعترفون انهم استفادوا من فشلهم بقدر ما استفادوا من نجاحهم. لانهم في اثناء معالجتهم للمسائل العويصة والصعبة والمستحيلة يقفون على معلومات واختبارات لم تكن تخطر لهم قبلاً وقد لا يصادفونها ولا يقفون عليها قط . فضلاً عن شحذ الذهن وكدّه وكثرة المطالعة والتعمق في الدرس والبحث والتنقيب

ويقوم فضل الدكتور صروف في العلوم الرياضية والفلكية كفضله في سائر العلوم الطبيعية والعقلية والاجتماعية — انه درسها في صغره في اللغة العربية ثم درّسها مدة طويلة في هذه اللغة وطالعها في كتب متعددة باللغات الاجنبية وراجع ما يمكن من

الوصول اليه من المخطوطات العربية القديمة فاثبتت له حقائقها في التدريس اكثر مما اعجلت له وهو يدرسها وحينما شرع في اصدار المقتطف تمكن من نشر المقالات والابحاث المطولة في مختلف العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية المشبعة درساً وتحقيقاً بعبارة فصيحة بسيطة واسلوب بليغ ووضوح تام مجتنباً الالفاظ غير المأنوسة والجمل المعقدة مع مراعاة قواعد اللغة مراعاة تامة والتزام اصولها والمحافظة على ضوابطها اومبادئها لان غرضه الاكبر كان نقل الصور والمعاني والافكار الى الاذهان بأحصر الطرق واسهلها وأبلغها عملاً بقانون البلاغة المشهور اعني به الاقتصاد على ذهن القارئ. وقد جعل تلك المقالات حافلة بالمباحث الطريفة وزاخرة بالحقائق الجديدة واختط لنفسه اسلوباً خاصًّا في الانشاء هو من السهل الممتنع . فجاءت كتابته ممتازة بغزارة المادة مقترنة بمتانة السبك وحسن الرصف وبساطة العبارة وجلاء الصور ووضوح الافكار واحكام الارتباط العقلي بين جميع اجزائها

ومع ان جميع كتابات الدكتور صروف العلمية آيات بيّنات فانّ من افضلها في نظري كتابهُ المعروف « بسائط علم الفلك » الذي توخى فيه الدقة في البحث والاستقصاء . والنزاهة في القياس والحكم والاستنتاج . والبساطة في التحليل والايراد . والفائدة العامة للجمهور بلغة علمية متينة بليغة جلية . موردداً أشهر الآراء واحدثها واجمل الصور والمعاني والطفها . باعذب الالفاظ وابلغ العبارات . فلا يجد القارئ اقل صعوبة في ادراك المعاني . واستيعاب الصور والافكار. وبكلام آخر لا يكاد يصرف شيئاً من قواهُ العقلية لفهم الافكار وادراك القضايا بل تصرف جميعها تقريباً في تفهم المواد الفلكية من افكار وصور وقضايا كما في الامثلة الآتية :

« لا اجمل من القمر اذا كان بدراً . الشمس ابهى منهُ واسطع نوراً . ولكن نورها يبهر العين ويؤذيها فلا تستطيع التحديق فيها. ويزيد البدر بهاء اذا دارت حولهُ هالة من النور كانها جند محيط بملك عزيز الشأن محرسهُ ولا تستطيع الدنوّ منهُ مهابة»

« وكلما فكّرنا في اقدار الشموس وابعادها يتنازعنا عاملان متضادان عامل استصغار الانسان في جنب غيره من الكائنات حتى يصير كالعدم . وعامل استكبار عقله الذي بلغ اعماق الكون وقاس السموات بالشبر وعرف عناصر الكواكب واقدارها وابعادها »

واشتهر الدكتور صروف باعتداله وانصافه في جميع الامور وتظهر هذه الصفة

نوع خاص في كتاباته الفلكية فانهُ لا يذكر من القضايا والابحاث والآراء الاَّ ما ثبتت صحتهُ او ما كان الافضل والأنسب مع الاشارة الى ذلك لانهُ كان مطبوعاً على حبّ البحث والتحقيق فيأبى ان يأخذ القضايا والنظريات بظواهرها

وانني اختم هذه الحجالة بما قالهُ الدكتور صروف نفسهُ عن اهمية العلوم الرياضية والطبيعية وما كان لها من المنزلة السامية في عينيه . وما تصورهُ لها من عظيم الاثر في العقول والمقام الرفيع في تعيين مجرى التمدن وكيان المجتمع الانساني

« العلوم الطبيعية والرياضية تعزز صفة الحب الشديد للصراحة وطلب الحقيقة لما تنطوي عليهِ من نواميس وقوانين لا ترد ولا تقهر »

« ولا بدَّ للطالب من درس العلوم الطبيعية والتاريخية والاجتماعية حتى يكون لهُ مادة يكتب منها . ومن درس الحساب والجبر والهندسة والمنطق حتى يسهل عليهِ التمييز بين صحيح الاحكام وفاسدها »

---

٢ — بيرلوميا

لاسماعيل مظهر بك صاحب مجلة العصور

١ — تمهيد

قلما يستطيع الباحث أن يلم بالآثار الفردية التي يخلفها نابغة كبير في حالات عصره، وعلى الاخص اذا رمى الى تحديد تلك الآثار من ناحية الفكرة العلمية . فان الفكر كتيار الكهربائية او كقبس الضوء او كشعاع فياض من اشعة الكون ، لا نعرف مصدرهُ على وجه التحقيق ، ونعجز دائماً عن تحديد آثاره التي يخلفها في نفوس الافراد . اما اذا اردت ان تبلغ الحد المستطاع من تحديد تلك الآثار فارجع الى القياس الاجتماعي فانك في هذا الميدان وحده يمكنك ان توازن بين حالات اجلى ظهوراً وابين صوراً

على ان مهمة الباحث تزداد وعورة اذا اكبَّ على درس الآثار التي يخلفها عقل انسيكلوبيدي تشعبت نواحيهُ وتفرقت طرقاتهُ وكثرت منعطفاتهُ . فاين يقع في تلك المفاوز الكثيرة على المصدر الذي بعث الى الحياة بتلك الصور الخالدة المشبوبة بروح اليقين ، المكسوة بحلل البقاء والخلود ؟ لا مرية في ان الوقوع على ذلك المصدر هو المرمى الذي يرمي اليهِ كتاب التراجم جميعاً . غير أن قليلاً منهم من استطاع ان يصل

الى ذلك السر الدفين . ولست بطامع في ان اقع على مصدر ذلك الضوء الذي بعث به استاذي الدكتور صروف في نواحي الشرق الغربي وقد اظلمت جباتهُ وادلهمت طرقاتهُ فانار السبل للهادي والساري ، وازاح الحجب عن خفي ما انار لغيرنا السبيل. اما مهمتي فلا اعتقد انها تتجاوز تصوير تلك الآثار تصويراً يمكن ان نتعقب به النتائج التي خلفها عمل الدكتور الفقيد في عالمي الاجتماع والفكر

غير ان هذا لا يفوت علي ان ألم ببضعة آثار اخرى خلفها لنا عملهُ العظيم في نواح تقل او تزيد علاقتها بالناحية الاجتماعية على حسب المقتضيات وظروف الحالات التي تقوم في المجتمع بين آونة واخرى. لهذا تكلم في تلك الآثار واحداً بعد آخر لتحددها على قدر المستطاع

٢ — الترجمة العلمية

بعد ان انقطعت صلة العالم العربي بالترجمة ، وكانت في العصور الاولى مبدأ تلك النهضة الكبيرة التي استمدت من السريانية في مدارس نصيبين والرها وادبرة آسيا الصغرى ومصر والعراق وحران ، وانبتت صلة اللغة العربية بكل لغات العالم تقريباً ، وظل المؤلفون والكاتبون قروناً طويلة عيالاً على ما كتب الاوائل وما نقل المترجمون ، وبعد ان انصرف الشرق العربي كلهُ الى الاشتغال بالآداب وحدها اشتغالاً لم يكن لهُ من قاعدة او اسلوب الهم الا الاسلوب القطري : اسلوب التقرير دون التحليل ، وبعد ان كادت تفتر العزائم حتى عن هذه الاساليب الاولية لكثرة ما لاكتها الالسن وتناولتها به الاقلام من نقل وتقرير ، وبعد ان دار الفكر العربي حول دائرة لا يخلص الى نهاية شوطها حتى يبدأ الشوط ثانياً ، انجهت النقول الى تلك الضجة الكبيرة التي قامت حول مذهب العلامة الكبير داروين التي بدأها بنشر مذكراته التي قرئت امام جمعية لينيوس ثم نشرت في اللانسيت وكانت النواة التي اجتمع من حولها الكتاب الخالد « اصل الانواع » . وكان لذلك الاتجاه الجديد اثر عظيم في الشرق ، بل اثر لا يمحوهُ كر الايام والدهور ، اثر اقل ما فيه انهُ اخرج عجلة الفكر الشرقي عن دائرتها المحدودة التي كانت تدور فيها فزلت عنها الى ميدان فسيح متراحي النواحي متسع الجنبات. ذلك ميدان العلم البيولوجي الذي اعتقد بحق انهُ محور التقدم العالمي وان لا ارتقاء لامة من الامم ادبياً وعلمياً واجتماعياً بغير التوافر على درسهِ وتطبيق عملياته وتفهم نظرياته العميقة . وكان دكتورنا الكبير اكبر ركن من اركان هذه النهضة الكبيرة ، وبدأ من اقوى

الايدي التي استقوت على عجلة الفكر فأدارت بها عن محورها الازل وخرجت بها عن قضيب الدائرة القديمة الحديدي فانطلقت تطير في عالم اثيري من الفكر الحديث . وكما ان العلماء في الغرب لم يقدروا حتى اليوم مقدار النتائج التي سوف تترتب على نهضة داروين العظيم واثرها في تطور النوع البشري ، كذلك لا نستطيع في الشرق ان نقدر النتائج التي سوف تترتب على تلك الدفعة التي دفعت بنا فيها تلك اليد القوية ، ولا الى اي حد سوف نبلغ من اطراف ذلك البعيد .

قد يتساءل البعض ما هي تلك القوة التي تزودت بها تلك اليد القادرة على ان تحول عجلة الفكر العربي عن دائرتها القديمة . وما هو السر الذي جعل مفتاح العلم يدور مرة اخرى في قفل ذلك الباب الذي اكل الصدأ جوانبهُ منذ أبعد العصور ؟ ولست اجد من شيء هو أهون عندي من الجواب . اما السر فهو تلقيح الافكار القديمة البالية بافكار جديدة ، وتغيير الاساليب القديمة باساليب حديثة ، وقتل العادات العتيقة التي تكب فيها الفكر بعادات تلائم مقتضى الزمان والمكان . اما الوسيلة فشيء ابسط من هذا كثيراً . وتنحصر في تفهم الجديد من الميتكرات العلمية والفنية والعقلية ونقلها بالترجمة الى عالم يجهلها على اننا لا ننسى هنا ان ابسط اشياء هذا العالم هي اكبر معضلاته كما ان في ابسط ذراته تكمن اعظم قواته . أليس هذا وحدهُ يكفي لان يخلد دكتورنا الفقيد ؟

٣ — العلوم البيولوجية

علم البيولوجيا هو علم الحياة ، اي العلم بما هي الحياة . وهذا العلم الحديث ، اذا استثنينا الرياضيات والفلك ، يكاد يكون العلم الوحيد الذي ترتبي عملياته على نظرياته بمقدار ما يربي المحيط الزاخر على النهر الصغير . لهذا كان اثره في العالم كبيراً على حداثة عهده

ومن اعجب ما يقع عليه الباحث المتعمق من طبيعة هذا العلم ان تأثيره في الاجتماع بالذات ثانوي اذا قيس بتأثير فروعه التي تشعبت منهُ . فالعلم بما في الحياة وما هي الحياة وما هي الكروموسومات وما هي النواة وكيفية التلقيح وما يترتب على كل هذه الابحاث العلمية من النتائج لا يقاس مثلاً بالآثار التي تخلفها في الذهن مباحث علم الحيوان او التاريخ الطبيعي أو الوراثة او الحفريات او الجيولوجيا وغيرها من فروع علم الحياة ، تلك العلوم التي تترك امامك الدنيا والعوالم والحياة كصور جغرافي لا تستقري فيه كيف

قامت الامبراطوريات وكيف دالت ، ولا كيف ثارت الشعوب وكيف هدأت عاطفتها ، ولا كيف تكونت المدنيات وكيف انحلت لاغير ، بل تقرأ فيها من صور الجمال والعلم ، ومن الوان الفن واللحظات ، ما تسكن اليه نفسك سكونها الى صورة ، الكون ميدانها والطبيعة فنانها الاعظم

يقول ارسطوطاليس — « في الشؤون العملية ليس الغرض الحقيقي هو العلم نظريًّا بالقواعد ، بل هو تطبيقها . ففيما يتعلق بالفضيلة لا يكفي ان يعلم ما هي ، بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها واستعمالها » . وهذه القاعدة يصح تطبيقها على علوم الحياة ، كما صح تطبيقها عند ارسطوطاليس على فنون الاخلاق . فليس يكفي في علوم الحياة ان يحوز الانسان علماً بقواعدها ، بل يجب ان يتعمق فيها ليحوز ذلك التصور الواسع الذي لا يجعل هذه العلوم قواعد جامدة فقط ، بل يعطيك من انعامها ونظامه فكرة فنية اساسها الجمال الذي يصدر عن المحسوسات والمرئيات ، ويزيدك في الحياة حبًّا ويزودك فيها بقوات عظمى تستخدمها لترقية النوع الانساني

يتبادر الى ذهن البعض ان العلوم العملية ومنها علم الحياة بفروعه هي اشبه الاشياء بالجوامد التي لا تبعث في النفس روعة ، ولا تخلق فيها جمالا . بل قد يذهبون الى أبعد من هذا . هم يصورون العلوم بالصخور الصلدة التي تتكسر عليها امواج الادب الذي يشبهونهُ بمياه البحر الناعمة اللطيفة . ولكن الحقيقة الواقعة على الضد من هذا . الحقيقة ان في جوف تلك الصخور الصلدة عالم من الجمال ، لا يمكن بحال ان يصل الى تصويره الادب مهما ارتقت فنونهُ ومهما تعددت اساليبهُ . انما البلوغ الى هذا العالم الفني العظيم وقف على اساليب العلم وحدها . وفي حدسي أن هذه الاساليب لا بد ان يكون لها من الاثر البعيد في الآداب مالا نستطيع تقدير مداهُ ، وان كنا على يقين من انهُ تأثير سوف يبلغ مدى قصيًّا من تغيير الفكر الانساني في الحياة

ولا استطيع بحال من الاحوال ان ادعي ان هذه الصور قد قامت في عقول الناس عند ما بدأ الدكتور صروف يدافع عن مبدأ النشوء والارتقاء واحداً فرداً منذ اكثر من نصف قرن من الزمان . وهل تعرف ماذا يفهم من « نصف قرن » . يفهم منهُ ان روح التعصب كانت لا تزال بعيدة التأثير في العقول وكان الجامدون لا يزالون ملتصقين بجدران الزمان يسندون ظهورهم الى جملة من المذاهب العتيقة التي

اخذت لبناتها تهدم لبنة بعد اخرى ، وكان في يدهم قوة التقاليد يتوقون بها على العلم واهل العلم وكانت المعركة لا تزال حامية الوطيس بين دارْوين وانصاره حربرت سبنسر وهكسلي من ناحية ، وسترسان جورج بيڤارت والاسقف ويلبرفورس من ناحية اخرى . ومن حول هذه المعركة دارت معارك اخرى في المانيا وفرنسا . بل لا تزال المعركة دائرة حتى اليوم في امريكا . وليس في امريكا وحدها ، بل في انكلترا ايضاً . فان المعركة التي دارت وتدور اليوم حول كتاب الصلاة المقرر في الكنيسة الانكليزية والاثر الذي خلفهُ خطاب السير اوڤرتيت لا تزال اصداؤها ترن في آذاننا

هذا ما يعنى بنصف قرن من الزمان . في بدايته استكنت تلك الصورة العلمية الرائعة الجمال من نفس دكتورة النقيد رحمهُ الله فقام يدافع عنها بقلمه ولسانه ، والناس بعيدون عن ان يدركوا ما انطوت عليهِ تلافيف دماغه من صور الجمال العميق الثابت ، لا الجمال الذي تحملهُ الكلمات والالفاظ والجمل ، التي قد تؤدي معنى ما او لا تؤدي . جمال العلم الثابت الذي هو اشبه بجمال الطبيعة ، يخلد ما بقيت صوره الخالدة السرمدية

الصورة الفردية التي تكونت في ثنايا ذلك الذهن الانسكلوپيدي الكبير لم تصبح اليوم صورة فردية . بل اخذت تمتد الى العقول وتغزو الافكار كلا . بل غزت عقولا ولقحت افكاراً . وذلك الجمال الذي كونهُ عقل الاستاذ منذ نصف قرن من الزمان اخذت صورهُ تنتقل صورة بعد اخرى الى اذهان اهل الشرق

على ان لهذا الجمال آثاره العملية البعيدة في ادراك الناس . فليس هو بالجمال الاجوف الرنان الذي يعبث بهِ الشعر ، ولا هو بالجمال الذي تمطيهِ الالفاظ رونقاً وقوتاً تمحى صورهُ اذا تراكمت عليها اتربة الزمان ، بل هو الجمال المتجدد الدائم ، هو النبع الذي يفيض باكسير الحياة ، تعجز عن العثور عليهِ الرواد في صدر التاريخ الحديث وعثر عليهِ العلماء في اواسط القرن التاسع عشر . أليس في نقل هذه الصور العلمية عن طريق علم الحياة اثراً خالداً يخلفهُ لنا صروف العالم ؟

٤ — تغيير اساليب الفكر

في اوائل القرن الثامن عشر لمع في اوربا نجم جديد اخذ الناس سناهُ . لمع في جو فرنسا نجم الفكرة الانسكلوپيدية بعد ان كاد يأفل ذلك النجم افول غيره من شموس الفكر المضيئة التي لمست ثم خبت نارها على مر الزمان . غير ان هذا النجم لم يرسل

باشعته لتبقى وتضيء العالم ، بل مع بهائها زاهياً وكأنه يودع العالم الوداع الاخير ، فكان ذلك آخر عهد للفكر الانساني به

بزغ هذا النجم في العصر الروماني ، وظل قوياً خلال القرون الوسطى . ثم زاده اللورد بأكون سناء وقوة اشعاع ، وفاضت انواره في أوائل القرن الثامن عشر ، وكانت اعمال سبنسر آخر ما بذل من جهد ليقي ذلك النجم ساطعاً في سماء الفكر . ولكن حم قضاؤه ونزلت به صاعقة الموت على يد النشوئيين

ومن الغريب ان الاتجاه الانسكلوبيذي في جمع المعرفة وحصرها ، قد ملك زمام كل الامم التي عنيت بالعلم والآداب في عصر ما من عصورها . فان هذا الطور بنفسه قد مرَّ به العرب ، فكانت مدوناتهم وكتبهم الادبية والتاريخية بل ومعاجمهم ، عبارة عن صور انسكلوبيذية ، تقل او تزيد قيمتها باختلاف الاحوال . ولست ادري بماذا نعلل هذه الظاهرة . غير انها ظاهرة ملموسة الآثار في التاريخ الفكري على كل حال

وكان للسياسة اكبر الاثر في جذب مصر وسوريا الى ناحية فرنسا ، وهذه الفكرة لاتزال شديدة الاثر في العقول وفي الآثار العلمية . كان لنا ان نلجأ الى فرنسا التي تظاهرت بصداقتنا منذ نيف ومائة عام لتصد بهذه الصداقة تيار الاستعمار الانجلوسكسوني عن الشرق . ولهذا السبب وحده تظاهرت فرنسا بالصداقة لسوريا ليكون لها هنالك قاعدة تقاوم بها نفوذ انكلترا التي بسطت سلطانها على الرجل المريض — تركيا — قضاء لمآربها . ومن هذا الطريق ذاعت صورة الثقافة الفرنسوية في مصر وسوريا وكان من اثر هذا ان انتقل الينا اسلوب الفكر الانسكلوبيذي لا بكل حسناته وسيئاته ، بل بسيئاته وحدها

لم يحفزنا نقل هذا الاسلوب الى تدوين العلوم الحديثة ولا الى نقلها فنتخذها في الحياة العلمية اساساً . بل حفزنا الى اخذ الصور الالحادية التي اذاعها فولتير وديدرو وغيرهما من زعماء فرنسا في العصر الانسكلوبيذي . فتخالطت بذلك الصور وتلاشت اساليب الفكرة العلمية . ومضينا نتخبط في هذه الدياجير حتى اذا اسفر بنا الزمان الى اواخر القرن التاسع عشر واتجهت الفكرة الى نشر المذهب النشوئي ، اخذت العقول تعتنق جديداً حولنا اليه الفكرة الانكلوسكسونية في الحياة وعندي انها ليست فكرة في الحياة ، بل هي الحياة بذاتها مصورة على ما يجب ان تكون الحياة الانسانية في اخص حالاتها العملية وعندي أن هذه هي نقطة الانفصال الحقيقي بين القديم والحديث في تاريخ الشرق العربي كله

لا تحقيق الفكرة الانسكلوبيذية في الحياة الاَّ صورة ما تقع عليه في تلك المعاجم الضخمة المشتملة المرامي التي اخرجها جهود الانسكلوبيذيين . فانهُ من العجب ان تقع في جماع تلك المجلدات الضخمة على مبدإ ينير الحياة سبيلها ويرسم لها قصدها وغايتها وما الحياة اذا لم يكن لها قصد وغاية ؟

في وسط هذه الغيوم التي نقلها الفكر الشرقي عن فرنسا اشعت اول الاقباس المضيئة منقولة عن الشوئيين في انكلترا . والحق أنه لا يجدر بنا أن ننسى فضل جامعة بيروت الاميركية في توجيهنا هذا التوجيه الذي كانت اساسه الحرية الفكرية المطلقة من كل القيود الثقيلة التي ربطتنا بالماضي على اعتقاد أنها النهاية التي لا يمكن ان نبلغ اكثر منها . فبين جدران هذه الجامعة قامت فكرة النشوء في عقل استاذنا الكبير ، وما أفلتت من بين هذه الجدران الاَّ لتملأ العالم الشرقي ضياء وتفيض عليه بفيوضها الحيوية

هنا انتقلت المعركة الى الشرق وما تزال قائمة . غير ان هذه المعركة قد اخذت في الشرق صورة تخالف الصورة التي اخذتها في الغرب . فاثرها في القضاء على الفكرة الانسكلوبيذية الفرنسوية يكاد يكونُ تامًّا الآن . اما اثرها في القضاء على اساليب الشرق القديمة فلا يزال يحتاج الى كثير من الجهد البالغ . على ان الطريق قد مهد وازيلت اكثر عقباته ولم يبق الاَّ السير فيه بقدم ثابتة لنبلغ الى الحد الذي سبقتنا اليه الامم

وهذه خطوة اخرى من الخطى التي خطاها بنا الاستاذ الكبير . أفليست تكفي وحدها لان تجعل اثره في الشرق خالداً ؟

٥ — الآثار الاجتماعية

ورثنا عن القرون الوسطى فكرة الخلاص الاخروي ، على انها الفكرة التي يجب أن تتجه فيها جهود الحياة . فكأنّنا بهذا فصلنا بين معقول الحياة والحياة ، او بالاحرى فصلنا الفكرة في الحياة عن الحياة

في القرون الوسطى ، وفي بضعة القرون التي تقدمت قيام المعركة بين العلم وصور المعتقدات القديمة ، قامت في العقول فكرة أن نهاية العالم تقترب وان عمر الدنيا الفان من السنين ، وان القرن العاشر من الميلاد هو نهاية العالم . هنالك انصرفت الفكرة الى الآخرة . ومن الغريب ان انصراف الفكرة الى الخلاص الاخروي لا تزال آخذة بخناق كثير من الشعوب على الرغم من ان العالم لم ينتهِ بل لم يزل مشبوب القوة بالحياة.

والحقيقة ان الوسائل كانت تنقص اهل العلم والذين اكبوا على الاسلوب العقلي يستدرون وحيه . فلما امتدى العقل الانساني الى تعليل كافٍ لمذهب النشوء اخذت تتداعى جدران القديم حجراً بعد حجر واخذت الانسانية تتمها نحو مبدإ آخر ، هو ان الخلاص الدنيوي لا ينزل عن الخلاص الاخروي قدراً ولا ينحط عنهُ مكانة

ونزل الانسان عن عرش الملائكة . ولكن ليتربع على عرش آخر . هو عرش الحيوانات . وبان للناس ان السلسلة الطويلة التي انتهت بوجود البريات وعلى رأسها الانسان ، اذ ترجع بدايتها الى ملايين كثيرة من السنين ، لا بد من ان تكون متجهة الى بلوغ حد قد تنتهي اليهِ بعد ملايين عديدة من الاعوام في مستقبل عمر الكون . وهذه الفكرة الجديدة ، على الرغم من انها قياس تمثيلي صرف ، على حد قول المناطقة ، كان لها من الآثار الاجتماعية ، ما تتضاءل امام الآثار التي خلفتها الاوهام في مصر وبابل واشور والكلدان خلال العصور القديمة

على ان هذه الآثار من المتعذر ان تحصى عدًّا . ولكن حسبنا ان نقول فيها انها نقلت الانسان من الآخرة الى الدنيا ، وكفى بهذا تصويراً لمقدار ما تنطوي عليهِ من الآثار الاجتماعية الكبرى

ان هذا الاثر الاجتماعي الكبير هو الذي تبلور عندهُ جهود استاذنا الكبير باعتباره عالماً بيولوجيًّا ادرك ادراكاً تامًّا ما يمكن ان تنتهي اليهِ نشر الفكرة البيولوجية في انحاء الشرق . وهنا تساءل مرة اخرى ، أليس هذا وحدهُ بكافٍ لان يجعل استاذنا خالداً ؟

٦ — النتيجة

وبعد . فهذه هي الآثار التي ترتبت على اشتغال الدكتور صروف بعلوم الحياة . وانهِ ليحزنني ان اكون اليوم راويها . يحزنني ان نفقد ذلك النجم الساطع في ليل أليل وفي عصر نحن احوج اليهِ فيهِ مما كنا الى امثالهِ في كل عصور التاريخ

ومهما يكن من امر هذه الصورة التي صورت بها ذلك الجهد الكبير الذي بذلهُ الدكتور العظيم ، فاني لا اعتقد اعتقاداً لا يوهنهُ الشك بان المستقبل كفيل بان تتضاءل هذه الصورة امام اهله اذا ما اكتملت في العقول كفاءة القياس التاريخي وادركوا ان اسم صروف ينزل من تاريخ الشرق منزلة الحركات الفاصلة في تاريخ الفكر الانساني